قراءة شارحة في كتاب مميز

محمد سعدون السباهي

الفصل الاول من فصول الكتاب الثمانية، كشف بالادلة المندائية، وذكر اهم كتبهم (دراشة يهيا/تعاليم يحيى، والكنزا، والقلستا، وكتاب مختص بالطقوس الدينية، وهي مجموعة من الكتب التي كشف عنها وقام بترجمتها الى لغاتهم العديد من المستشرقين الاوربيين، امثال الالماني/كورت رودولف، صاحب كتاب (المندائيون) المنشور عام ١٩٦١، والمستشرقة الانجليزية/ستيفانا دراور، التي عاشت في العراق لهذا الغرض لاكثر من ربع قرن منصرفة الى تتبع اصول الطائفة المندائية وطقوسها ولغتها، ونشرت كتابها(المندائيون في العراق وايران) عام ١٩٣٧، ثم وضعت بالتعاون مع المستشرق/ رودولف ماكوخ، قاموس اللغة المندائية عام ١٩٦٢، وضم هذا الفصل كذلك سياحة ممتعة ومفيدة في الصراعات الفكرية القديمة التي كانت تدور بين اليهود انفسهم، وبين المسيحي والمسيحي وفق قضية(الايمان والمعرفة) وكذلك بين المسلمين فيما بعد .

وفي الفصل الثاني عرض للديانات السومرية والبابلية والاشورية والاكدية، وكيف انها تكاد تكون من اصل واحد على الرغم من الاضافات هنا وهناك، لتخلص الى ان (آيا) اله الماء، والد الاله الشاب (مردوخ) الذي اصبح فيما بعد المقدس عند جميع الالهه (آيا) هذا كان الصابئة يدينون له، ومنه استمدت اهم طقوسهم المتمثلة بالتعميد بالماء او (الصبغة) وتأثرهم من جهة ثانية بـ(سن) اله القمر و(شامش) اله الشمس و (آنو) اله السماء، اي مجموعة ما يسمى بـ(حشد السماء) حيث التركيز على عبادة الكواكب والظواهر الفلكية ودورها في تقرير سلوك الانسان على الارض، حتى ان عالم الاثار البريطاني/هنري لايارد، يذهب الى ان الديانة البابلية المعروفة بتقديسها (لحشد السماء) كانت ذات منحى صابئي، وان جميع من حكموها من ملوك كانوا من ملة الصابئة .

صفوة القول ان الديانتين البابلية والصابئية ومن قبلهما الديانة السومرية، كانتا تنزلان الماء منزلة عالية باعتباره مصدر الحياة الرئيس لانه يدخل في جميع جوانب حياة الانسان : الزراعة والصيد والاهوار التي تبنى منها بيوتهم، وكذلك الطمي المستخدم في البناء والسدود والنظافة التي تقي الانسان من الامراض، وتمنحه بعد الاغتسال به منظرا جميلا، ثم انه المصدر الوحيد للتطهير من النجاسة في حال لمس الميت او بعض الحيوانات وكذلك الحيض بالنسبة للمرأة والممارسة الجنسية وما الى ذلك، فضلا عن ان الانسان حيثما ولى وجهه يجد الماء: في السماء وفوق الارض وتحتها ويحيط بها !

لذا فليس من عجب ان ظل العراقيون يتوارثون تقديس الماء قروناً عديدة .

الفصل الذي يليه يتحدث عن اسطورة الخلق عند البابليين والمندائيين، وهي سلسلة من الحروب بين الالهة، خصوصا بين (الروها) آلهة الظلام-العالم السفلي- و(هيبل زيوا) إله النور-العالم العلوي- حيث ينتصر الثاني، ومن تزاوج الآلهة الذكور والاناث ببعضهم تولد الكواكب والشمس والقمر وبروج السماء الاثنا عشر، ثم يعمد الاله (بثاهيل) بعد خلقه الارض (ليصنع آدم على صورته، وهو يصنع حواء على مثال آدم) وبأمر من (الحيّ) (يأخذ نفسا في وعاء خفي) ويقذف النفس داخل آدم وحواء فيفتحان عينيهما -لاحظ الاسماء! ص٧٥

كلا الاسطورتين تقران بوجود عالمين، عالم النور وعالم الظلام، وهذه الفكرة كما نعلم ذات اصل سومري .وكذلك يبدو الانسان في الاسطورتين مزيجا من عنصرين : ارضي، طين الارض، بمعنى (الطبائع والغرائز) وسماوي، دم إلهي او نفس سماوية، بمعنى (العقل والمعرفة والحكمة) اذ لا تكتمل صورة الانسان الا بالمزج بين هذين العنصرين..

في الفصل الذي يليه، بحث موسّع في شأن الطوائف اليهودية والمسيحية التي استوطنت عند البحر الميت ونهر الاردن، وهذا البحث لم يقطع بانتساب الطائفة الى واحدة من هذه الطوائف، وان كان يؤكد ان البيئة الدينية والاجتماعية التي ظهرت هناك قابلة لان تولّد اتجاها كالمندائية، يمارس افرادها التعميد بالماء والميل الى الانطواء على النفس والتخلي عن اليهودية الى معتقدات اخرى معاكسة والجمع بين معتقدات عديدة، ويناقش كذلك مكان الطائفة الاصلي، اهو فلسطين ام شرق الاردن، وان اكثريتهم هاجرت بسبب الحروب والاضطهاد الديني باتجاه الشرق، واستقرت جنوب ما بين النهرين «ميسان» حاملة معها ابجديتها التي طورتها عن النبطية ليدونوا فيها معتقداتهم لاحقا .

الفصل الرابع يناقش الصورة الفعلية لشخصية يحيى ابن زكريا، كما يعرف بالعربية، او يوحنا المعمدان، كما عُرف بالادب المسيحي او يهيا يهانا، كما ورد في الادب المندائي، يناقشها من حيث الاصول والممارسات الدينية والفكرية وحتى اعدامه على يدي (هيرود) ملك اليهود الذي خشي من قوّة يحيى الفائقة في اقناع الناس بافكاره، ومن ثم يمكن ان يقودهم الى الثورة عليه .

الفصل التالي يتناول علاقة يحيى بن زكريا بالديانة المندائية، فمنهم من يرى ان الديانة المندائية على خلاف الديانات الاخرى لم يرتبط ظهورها بشخصية تاريخية، ولا يعرف لها مؤسس، اذ المندائيون انفسهم لم يزعموا لا في كتبهم ولا في تراثهم الشفوي ان يحيى هو الذي اسس دينهم، اذ فهموه على انه مصلح اجتماعي فريد ضحى بحياته لانقاذ المجتمع ومن فيه من بشر مما لحقهم من حيف واضطهاد، ويذهب المستشرق الالماني/كورت رودولف، الى ان يوحنا المعمدان المولود عام ٦ ، او ٧ ق.م في قرية (صبرون) التي تسمى اليوم (عين كارم) قريبا من بيت لحم، الذي قتله اليهود عن عمر ٤٢ عاما، لا علاقة له كمؤسس بالمندائية كديانة، لانها ظهرت قبل ظهوره باجيال عديدة، وان المندائيين نسبوا انفسهم الى يحيى ليضمنوا لانفسهم تعاملا محترما لدى المسلمين باعتبار ان (القرآن يتحدث باحترام كبير عن يحيى، ومن جهة اخرى ان ايمان المندائية بأن المخلص هو عنصر روحاني يهبط من السماء، دفعها ان ترسم ليحيى دورا يظهره كحلقة واقعية تصل الارض بالسماء .

ويتساءل المؤلف عزيز سباهي وهو مندائي طبعا : ان علاقة يحيى بالمندائية وعلاقة المندائية بيحيى، هل هي حقيقة ام مجرد تكهنات لانها قضية يشوبها التشويش والارباك والغموض في اكثر من جهة، وذلك لقلة المصادر المعتمدة في هذا الشأن ثم عرض عن الغنوصية المندائية، وما هي هذه الغنوصية، واين ظهرت، ومتى وكيف واين عرفها المندائيون وهل اضافوا لها شيئا خاصا منهم، كل هذه الاسئلة وغيرها يجيب عليها الفصل الخامس .

الفصل السادس يلقي الضوء على (دست ميسان) جغرافيا وتاريخيا، وكيف ولماذا اتخذها المندائيون موطنا لهم؟ وما هي الاقوام التي استوطنتها ايضا فنمت المدينة كثيرا، وازدهرت فيها اعمال التجارة والصيرفة، الامر الذي جعلها سياسيا بمنزلة مملكة، وصار يعرف حكامها بالملوك، ومعظمهم من المندائيين، ولماذا يعتقد المستشرق/نودلمان، عالم اللغات السامية، ان اسمها يعود الى المندائية، اذ تتألف الكلمة من جزئين : مي، وتعني بالمندائية ماء، وشان وتعني القصي او البهي، فتصبح : المياه القصية او البهية اشارة الى وجودها عند اقصى الجنوب، او نسبة الى وفرة المياه فيها، هذا بالاضافة الى مناقشة مستفيضة للابجدية المندائية، التي يذهب معظم الباحثين الى قدمها وفضلها في ايجاد ابجديات مهمة اخرى، والفرضيات المختلفة بشأن البلد الذي ظهرت فيه اول مرة، وكذلك المنبع او مجموعة المنابع الفكرية التي اشتقت منها المندائية افكارها وتعاليمها وطقوسها الدينية .

الفصل السابع يناقش قضايا متعددة تخص المندائية، خصوصا ما يتعلق بـ(ماني) مؤسس المانوية، الذي ولد بينهم عام ٢١٦م وكان ابوه مندائيا، وامضى طفولته وصباه بينهم، وظل يتمسك بالعقائد المندائية حتى بلغ السادسة والعشرين من عمره، حيث غادرهم وشرع يدعو الى اعتناق دينه الخاص، وقد نجح فعلا بحيث تبنى دينه (هرمز) الامبراطور الفارسي نفسه، الامر الذي اقلق كهنة الزرادشتية الاثرياء عبدة النار ودفعهم للتآمر عليه اذ وضعوا له حيلة خبيثة انتهت بموته على نحو عنيف ! (للمزيد في أمر ماني والمانوية نحيل الى مراجعة كتاب/حدائق النور، لامين معلوف) .

اما الفصل الثامن والاخير، فيتحدث في خمس عشرة صفحة عن اعلام الفكر الصابئي ايام الخلافة العباسية والدولة البويهية امثال : ابو اسحق الصابي، والبتاني، وابو جعفر الخازن، والفيلسوف الطبيب ثابت ابن قرّة، الذي علت منزلته لدى الخلفاء العباسيين وعن طريقه (ثبتت اصول جماعته وبرعوا وعلت مرتبتهم) كما يذكر ابن النديم في/الفهرست، وكذلك افتى الامام ابو حنيفة النعمان بـ(لابأس بذبائحهم ونكاح نسائهم) وذهب القاضي ابو يوسف مذهب استاذه ابي حنيفة حين سئل عنهم، اما الشهرستاني، مؤرخ الفلسفة العربية الاسلامية فقد تحدث عنهم كثيرا مادحا في كتابه (الملل والنحل) وان القائد العربي الاسلامي سعد بن ابي وقاص الذي انتصر على الساسانيين في معركة القادسية الفاصلة (٦٣٥م) حين قابله احد كبار المندائيين (انش بر دنقا) وعرض عليه اوضاع طائفته حاملا معه كتابهم (كنزا ربا) امر بادراج الصابئة ضمن اهل الكتاب الذين جاء ذكرهم في القرآن، وخصهم بتسامح خاص، لان القرآن كان يقصدهم بقوله تعالى (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا انما يؤكد واقعا قائما قبل الاسلام .

ومن ثم فانا ازعم ان قراءة هذا الكتاب قراءة فاحصة، اكثر من ضرورية، خصوصا للذين يعملون في حقول الفكر الانساني الفاعل والمتفاعل من باحثين وادباء وفنانين وسياسيين ورجال دين ايضا .

وفي السياق ذاته هي دعوة لابناء الطائفة المندائية على وجه الخصوص سواء من ظل منهم في الداخل او هاجر الى دول الشتات من اجل تلمس منابع واهداف ديانتهم من باب (اثبات الهوية) في زمن تحاول فيه القوى المهيمنة تهميش كل ما لا يلتقي مع مفاهيمها ونواياها ومنطلقاتها، هدفها الاجهاز عليها لتظل حصان الساحة الذي لا يسمح لغيره الدخول الى المضمار الفكري والعقائدي لبقية الشعوب ولعل ما اصاب الدين المندائي من ضمور وتراجع يعود حسب المؤلف الى تشديد كبار رجال الدين على سريّة النصوص فهي خاصة بهم وحدهم وان لا تسلّم حتى الى عوائلهم بل الى من يليهم حين يقتربون من الموت، وحين تجرى طقوس التعميد يجرى ترديدها همسا لكي يتعذر على احد ان يسمعها بوضوح بمن فيهم من يجرى له طقس التعميد !!

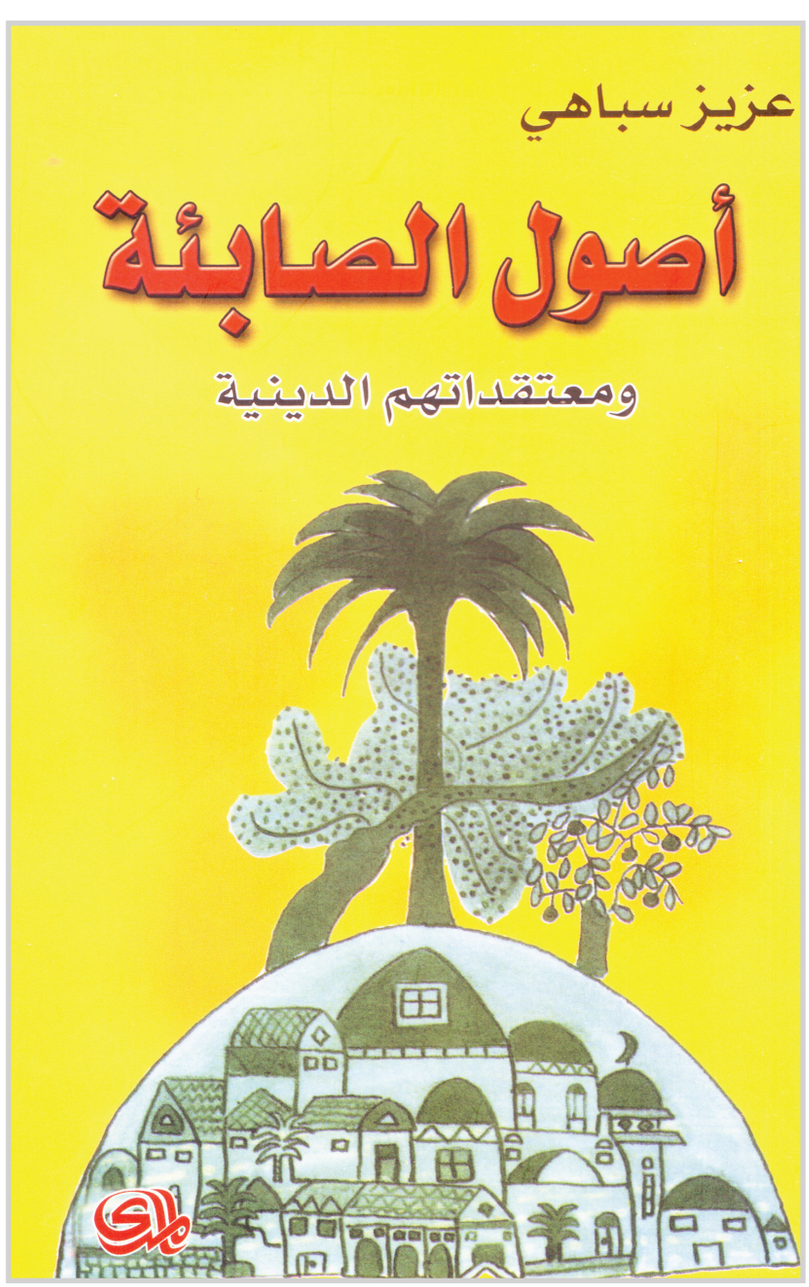

في كتابه القيم/اصول الصابئة، الذي اصدرته مؤسسة المدى الثقافية، يتحدث المفكر العلماني العراقي السيد عزيز سباهي، بطريقة قريبة من السرد الروائي الجميل، باسهاب وعلى نحو غير مسبوق عن طقوس الصابئة المندائية ومعتقداتهم الدينية وتأثيراتهم الفكرية في محيطهم ، واصولهم، والتطورات التي مرّت بها هذه الطائفة من الناس منذ بداياتهم الاولى التي تمتد اكثر من الفي سنة سواء في فلسطين، او بعد هجرتها الى الفرات قبل ظهور الاسلام وبدايات ظهوره .

مكتبة اوقاف السليمانية ..

نوادر من الكتب والوثائق ..وكنوز المعرفة والادب ..!

مؤيد الخالدي / السليمانية

تزخر السليمانية بانتشار العديد من المكتبات القديمة والحديثة وحتى المكتبات التي تعود الى بعض الدوائر الحكومية ومنها مكتبة الاوقاف العامة او اوقاف السليمانية والتي تزخر بانواع الادب والعلوم والفنون وقد لا يخطر ببال احد ان هذه المكتبة تضم في اروقتها نوادر الكتب والوثائق التي تعود الى حقبة من تاريخ العراق القديم ووثائقه النادرة وكنوز الادب والعلوم والمعارف، و زاخرة بكتب العلوم و المعرفة المتنوعة (الادب و الفن و السياسة و التاريخ و التراث) وغيرها من كنوز الفكر و الثقافة وقد لايخطر ببال احد قيمة هذه المكتبة وذلك لانها مكتبة اوقاف !! و من اجل تسليط الضوء على هذه المكتبة و اصولها اتاريخية التقينا مديرها (جميل محمد فرج) حيث تحدث قائلا :

ان هذه المكتبة العريقة كانت نواتها الاولى عبارة عن كتب مكتبة (البابانيين) الذين حكموا في قلعة جوالان و حين قرر ابراهيم باشا نقل عاصمته هنا في السليمانية قرر نقل المكتبة الثمينة الغنية بالكتب و المصادر و في حينها كلف ابراهيم المرشد الديني الشيخ معروف النوديهي و كان عالما دينيا بالاشراف على هذه المكتبة و التي كان مقرها الاول في «الجامع الكبير « وسط السليمانية و استمر بالاشراف عليها الى ان تسلم ابنه كاكا احمد الشيخ مسؤوليتها و اشرف عليها حتى فترة ملك كوردستان الشيخ محمود الحفيد .

ـ و اضاف محمد: بعد فشل ثورة الشيخ محمود الحفيد تعرضت المكتبة الى النهب و الحرق من قبل القوات البريطانية انذاك حيث قامت تلك القوات بحرق الكثير من المصادر امام باحة المسجد و يذكر رجال عاصروا تلك الفترة انه لم يؤكد بعد ان هذه المكتبة كانت تحتوي على كتب و مصادر لا وجود لها في اية مكتبة في العالم وبقي من تلك الكتب حوالي ٣،٥٠٠ ثلاثة الاف و خمسمائة كتاب و مخطوطة و هي موجودة حاليا و لا تقدر بثمن كما ان هناك اعدادا كبيرة من الصحف و المجلات القديمة جدا التي تعود الى الثلاثينيات و الاربعينيات و حتى الستينيات من القرن الماضي و هي تعتبر مرجعا مهما للباحثين و الدارسين و العلماء في مجالات الزراعة و الاقتصاد و حتى الجغرافية داخل المدن و « الطابو « حيث ان مصدرها يعتبر مرجعا اصوليا.

ـ ويضيف محمد : انا لدي ملاحظة احب ان اقولها و هي انه و مع الاسف الشديد يتصور الكثير من الناس ان (مكتبة الاوقاف) تختص بالكتب الدينية فقط و هذا خطأ كبير فلا يعني مكتبة الاوقاف انها تقتصر على الكتب و المراجع الدينية فقط فهذه المكتبة غنية عامرة بفنون العلم و المعرفة و التاريخ و العلوم و التراث و المصادر الاخرى (الزراعة و القانون و الاداب و السياسة و الاعلام) .

و يضيف محمد : ان هذه المكتبة يزداد عدد كتبها و مصادرها يوما بعد اخر و تستقطب مكتبتنا سنويا عشرات الكتب من المعارض و المكتبات من مختلف المصادر اضافة الى تسلمنا مئات الكتب من المكتبات الشخصية التي تهدى الى المكتبة من قبل المثقفين و من مختلف المواطنين لغرض زيادة فنون المعرفة لديهم و لكي يستفيد الباحثون و الدارسون و طلبة العلم و المعرفة .

و يضيف محمد: نحن ابواب مكتبتنا مفتوحة لجميع الزوار و رواد المكتبة و نحن بخدمتهم من اجل ان يستفيدوا من هذه الكتب و الوثائق كمصدر لمعلوماتهم و لدقتها التاريخية و لا نبخل على احد في الاستفادة منها و مع تطور التكنولوجيا الحديثة و بالسرعة الفائقة و دخول الانترنيت الى عالمنا الجديد و لكننا مع الاسف الشديد لم ندخل هذه التقنيات في عملنا و اقول نحن نعمل بطريقة كلاسيكية تعرفونها جميعا و هي وجود دواليب مع جرارات خاصة بكل الحروف الابجدية لمسميات و عناوين الكتب و المصادر المختلفة اضافة الى المؤلفين و ان من يبحث عن كتاب او مصدر يبحث عن الحروف بالتسلسل اضافة الى وجود سجل قديم مثبت في قاعة المطالعة للبحث عما يرغبون به .

ـ و اضاف محمد: نحن لدينا رغبة مستقبلية و هي ادخال عناوين الكتب و المصادر في سجلات الكترونية و خزنها في اقراص CD و الكومبيوترات لان خزنها يكون اسرع و افضل من تلك الطريقة القديمة و هي تختصر الكثير من الوقت لان الوقت ثمين للباحثين و ان نجعل من هذه المكتبة اكثر تقنية ان شاء الله و حسب الامكانات المتاحة .

ـ و عن اهم الكتب و المصادر يقول محمد: نعم هناك العديد من الكتب التي لا اتذكرها بصراحة لان الذاكرة لا تتسع لها و اذكر ان هناك كتبا للشافعي و كتبا ووثائق مهمة و نادرة جدا و لابد من الاشارة الى نسخة نادرة و ذهبية من « القران الكريم « حيث انه تحفة رائعة و هي بخط الشيخ « معروف النوديهي « الذي احسن خطها بنوع « خط النسخ « و هي محيرة و مدهشة فانه اتقنها في وقت لم تكن هناك تكنولوجيا مثل الان و لا اعتقد بامكان اي شخص ان يقلد هذا الخط و العمل الفني الجميل و حتى التكنولوجيا لا تتمكن من ذلك و انها نسخة رائعة و نادرة تحتفظ بها مكتبتنا .

ـ و اضاف محمد: كنا سابقا نحتفظ بهذه النوادر في مكتبة قديمة في منطقة « صابونكران « و هي دار قديمة جدا و فيها رطوبة و كما يعرف الجميع ان اخطر ما تتعرض له الكتب هو « الماء و النار « حيث كان المكان السابق للمكتبة غير نظامي و غير اصولي و تكثر فيه المياه و الرطوبة اضافة الى القوارض اما اليوم و الحمد لله تمكنا من الاحتفاظ و المحافظة عليها حتى هذه اللحظة لانها من روائع الكتب و الان مكان المخطوطات مغلف و متوفر فيه جميع المواصفات العلمية و لكن لدينا مشكلة في حجم المكتبة لانها و بصراحة لا تتحمل ضيق المكان مع ورود الكثير من الكتب و المصادر سنويا و ان بناء هذا المكان الحالي بصراحة ضيق جدا و لا يتسع لا للمصادر و للكتب و لا حتى لرواد المكتبة و تصور حجم المكان لايتسع للمطالعة لاكثر من ١٢ شخصا فقط و هذا امر غير طبيعي لمكتبة كبيرة مثل مكتبتنا .

ـ و يؤكد محمد: تردنا سنويا الاف الكتب و المصادر و هي بحاجة يوما بعد يوم الى توسعات و استقلالية كي تكون مكتبة حقيقية فيها قاعات للمراجعات و قاعة الدوريات و قاعة المطالعة و قاعة للكتب و انتم قد تجولتم في اروقة المكتبة و صورتم حجمها و شاهدتم كم المكان ضيق و مزدحم بالكتب و ان القاعات الان و مع الاسف الشديد اصبحت للكتب و لاقسام الادارة كما لاحظتم و لا توجد قاعة للمطالعة اصولية او نظامية و هي ضيقة و تسعى لخدمة روادنا و كل يوم نلاحظ ان هناك الكثيرين يسعون الى اهداء مكتباتهم الشخصية لنحتفظ بها و يستفيد منها جميع المواطنين و نحن نتردد في استلام بعض الكتب للاسباب التي ذكرتها و هناك من يرغب في اهداء مكتبة مع اخشابها و تسجيل الهدايا باسماء اصحابها تقديرا لمحبتهم وخدمة ابناء بلدهم .

ـ و يضيف محمد: حول موضوع استعارة الكتب لدينا طريقتان الاولى و هي استعارة داخلية اي يزود الرواد بالكتب المطلوبة ضمن بناية المكتبة و داخلها فقط و لا يجوز اخراجها من المكتبة و الطريقة الثانية و هي الاستعارة الخارجية و التي تزود الرواد بالكتب المطلوبة مع تحديد فترة زمنية من يومين الى اسبوع و هناك ضوابط بشأن الاستعارة و هي امر طبيعي كي نحافظ على تلك الكتب ليستفيد منها اكبر عدد من المواطنين و هناك بعض الكتب و المصادر و القواميس النادرة يكون عليها الطلب كثيرا فنضطر الى تحديد عدد ايام استعارتها بحيث لا تتجاوز اليومين فقط و تكون المطالعة ضمن بناية المكتبة و ليس خارجها و ان يكون المستعير شخصا معروفا لدينا حفاظا على مقتنيات المكتبة .

ـ و عن اهم المصادر الموجودة ضمن جغرافيا المدن يقول محمد: نعم هناك بعض المصادر الجغرافية و الكتب التي تتحدث عن مدينة كركوك و اصل الكلمة فهناك حادثة تاريخية تقول ان هناك ملكة اسمها « انابكا « قبل ثلاثة الاف و خمسمائة سنة كانت تحكم كركوك و تقيم في قلعة كركوك الحالية حيث تقام فيها بعض الاعمال اليدوية و الحياكة والغزل و صناعة البطانيات فكانت تقول « كار كوك ـ و تعني العمل الجيد « و لسهولة اللفظ تم تسميتها باسم كركوك و ان اصل الكلمة « كاركوك « يدل على اصالة كوردية هذه المدينة و التي لاتزال تحوي جميع اطياف الشعب العراقي منذ الاف السنين .

ـ و يقول محمد اخيرا: نحاول الان العمل على تصوير الوثائق و الكتب و المخطوطات النادرة لكي نحتفظ بها لاكبر مدة زمنية و تتناقلها الاجيال و نحتفظ بتاريخ و تراث البلاد و قد امر وزير الاوقاف في حكومة الاقليم الشيخ محمد الشاكلي بتصوير تلك الوثائق و المدونات حفاظا عليها من التلف الطبيعي و اذكر منها « مخطوطات ابو بكر المصنف « و « الوضوح في الشرح المحرض « و كتب نوادر فقهية و خارطة للكعبة المشرفة و ابوابها و مواقيت الحج و هي تحفة نادرة تحتفظ بها مكتبتنا.